تعريف الفونيم وأهمية دراسته :

الفونيم : "أصغر وحدة فونولوجية في اللغة موضع الدرس "، أو هو: " الوحدة الصغرى التي تقوم بدور في تمييز المعاني " .

لاشك في أن دراسة الفونيم وفهم الدور الذي يقوم به في علم الأصوات، من شأنه أن يُحقق لنا أهدافًا شتى من أهمها.

١- أنه أي الفونيم، قادر على تمييز كلمة من أخرى. وهذا يستتبع قدرة الفونيم على التفرقة بين الكلمات في المستويات الصرفية والنحوية، والدلالية.

فعلى سبيل المثال، تختلف كلمة "صام"، في المعنى، عن كلمة "نام"، بسبب وجود فونيم الصاد، في الكلمة الأولى، وفونيم النون في الكلمة الثانية. كما أن الفرق بين كلمة " مِنْ " min ، وكلمة " مَنْ " ، man ، هو فرق صرفي، ونحوي، ودلالي، فالكلمة الأولى حرف جر تفيد، كما هو معروف معنى الابتداء، أما الكلمة الثانية فيمكن أن تكون اسم استفهام، أو اسم موصول، وذلك بحسب السياق التركيبي الذي تقع فيه. وتعود هذه التفرقة في المستويات الثلاثة الصرفية والنحوية، والدلالية، إلى وجود فونيم الكسرة // في الكلمة الأولى، وفونيم الفتحة /a/ ، في الكلمة الثانية.

٢- يعد الفونيم وسيلة مهمة في عملية تعلم اللغات الأجنبية وتعليمها، ذلك عائد إلى أن عدد الفونيمات، في أية لغة، يقل كثيراً عن عدد الأصوات الفعلية الحقيقية لتلك اللغة. وهذا يعني أن التعرف إلى الفونيمات، وهي قليلة العدد، أيسر سبيل إلى تعلم الأصوات المنطوقة بالفعل، وهي في العادة كثيرة العدد .

٣- يساعد الفونيم باعتباره وحدة صوتية يشار إليها برمز كتابي محدد – يساعد على ابتكار ألفبائيات منظمة ودقيقة للغات، ذلك أن الصور الصوتية الفعلية للفونيم الواحد، تتعدد ، بحسب السياق الذي ترد فيه، في كثير الحالات، مما يؤدي في نهاية المطاف، إلى تنوعات صوتية لا حصر لها للمنظومة الفونيمية المحدودة لأية لغة.

وهذا يستدعي بطبيعة الحال، رموزاً كتابية مقابلة لا حصر لها، مما يعقد الأمر. ولهذا كان الفونيم الواحد، برمزه الكتابي الواحد، وتنوعاته الصوتية المختلفة، وسيلة مهمة للتيسير، والابتعاد عن الصعوبة والتعقيد.

ولكي نوضح لك الأمر ، نقول: إن الباء، في اللغة العربية، فونيم قد تتعدد صُورهُ من حيث النّطقُ الفعلي، فهي مجهورة، ولكنها قد تتعرض، في بعض السياقات ، إلى التهميس، وكذلك الحال مع التاء فهي مهموسة ولكنها قد تتعرض، في بعض السياقات النطقية أيضاً إلى التجهير. وقل الشيء نفسه عن الفونيمات الأخرى، أو بعضها على الأقل، في اللغة العربية. وهذا من شأنه أن يُؤدي إلى الحصول على أعداد كبيرة جداً من الأصوات، وكل صوت منها بحاجة إلى رمز مستقل، الأمر الذي يؤدي، ولاشك إلى الصعوبة والتعقيد.

نشأة الفونيم :

يعد الفونيم تصورًا حديثًا في علم الأصوات اللغوية، وتعود بدايته إلى العالم (بودوان دي كورتيني) عام ١٩٢٢ الذي اهتم بالفونيم اهتماماً كبيراً.

أما مصطلح فونيم، فهو ابتكار لأحد طلبة كورتيني، وأشار إلى ذلك أيضاً (فيرث)، وأنه كان على وجه التحديد عام ١٨٧٩م. وقيل غير ذلك. وتباينت مواقف الدارسين من الفونيم تبايناً واضحاً بين مؤيد ومتحمس ومعارض متشدد ، ولعل أكثر المتحمسين له (كرامسكي) الذي رأى أن اكتشاف الفونيم يعد واحداً من أهم منجزات علم اللغة. وذهب غيره أبعد من ذلك، فقد رأوا أن اكتشاف الفونيم يعادل اكتشاف الطاقة النووية؟؟! وعلى حد قول شتراوس: ((إن ابتكار الفونيم قد فجر ثورة صوتية)) .

من الذين رفضوا نظرية الفونيم (فيرث)، و (الفرد سميث)، وغيرهما استنادًا إلى أن الكلمة أصغر عنصر لساني، وأنّ الفونيم لا يؤدي وظيفة بصورة منعزلة، وأن انتباه المتكلمين في أغلب الأحيان، لا يكون مركزاً على الفونيمات .

أنواع الفونيمات :

تنقسم الفونيمات إلى قسمين رئيسن هما :

١. فونيمات أولية أو قطعية، وهي الصوائت، والصوامت، وتسمى أيضاً فونيمات تركيبية، وهي الفونيمات التي تكون جزءا أساسياً من الكلمة المفردة وذلك كالباء والتاء، والثاء...الخ.

٢. فونيمات ثانوية أو غير قطعية، وهي التي لا تكون جزءا من تركيب الكلمة، وإنما تظهر وتلاحظ فقط حين تضم كلمة إلى أخرى، وتشمل الفونيمات الثانوية النبر والتنغيم التي تُسمّى فونيمات غير تركيبية، وعليه فإن هناك فروقات بين نوعي الفونيمات يمكن تحديدها بما يأتي:

- يعد الفونيم غير القطعي أكثر بقاء من الفونيم القطعي؛ أي أن الفونيم القطعي قد يتعرض للتغير أو الزوال الذي يحكمه التطور اللغوي التاريخي، في حين يبقى الفونيم غير القطعي في الغالب، محافظاً على وجوده.

- إن الفونيم غير القطعي أكثر بقاء من الفونيم القطعي لدى الأشخاص الذين يصابون ببعض أمراض الكلام، كالحبسة النطقية.

- الارتباط بين الفونيمات غير القطعية والقيم الدلالية يكون أقل من الارتباط القائم بين الفونيمات القطعية وهذه القيم. وهذا يعني أن الأداء الدلالي للفونيمات القطعية أقوى من الأداء الدلالي للفونيمات غير القطعية، فكلمة «نعم» ترتبط بمكوناتها الفونيمة التركيبية، وهي النون والعين، والميم، والحركات الملابسة لها ، وترتبط دلالياً بمعنى الجواب، في حين أن نطق هذه الكلمة بتنغيم معيّن قد يفهم منها عكس المقصود منه.

- للفونيمات غير القطعية صلة بالتعبير عن المعنى القواعدي أكثر من صلتها بالمعنى المعجمي؛ وهذا يعني أنّ الفونيمات غير القطعية تقوم بدور مهم في رسم حدود القواعد المعروفة ، فالنبر وهو أحد الفونيمات غير القطعية قد يُستغل أحياناً، للتفريق بين الأسماء والأفعال في اللغة الإنجليزية مثل: import اسم، و import فعل .

وهذا التغيير في الصفة الصرفية من اسم إلى فعل، أو العكس من شأنه أن يؤدي إلى نوع من التغيير في الوظائف النحوية والدلالية .

علاقات الفونيم :

للفونيم علاقات عدة، منها:

***- علاقة رأسية، وتقوم على استبدال أو وضع فونيم مكان فونيم آخر فيتغير المعنى، ويكون في البداية، مثل: (نال قال) وفي الوسط، مثل: (مشى مدى)، وفي الآخر أو ختامي، مثل: (سال ،سار) وكلّ علاقة من هذه تسمى علاقة تبادلية.**

***- علاقة أفقية أو خطية، وبها تتوالى الفونيمات واحداً بعد الآخر بشكل أفقي؛ لتكوين المقطع، ثم تتوالى المقاطع أفقياً، لتكوين المورفيم وتتوالى المورفيمات، لتكوين الكلمة، وتتوالى الكلمات؛ لتكوين الجملة.. فكل فونيم له علاقات أفقية مع الفونيمات السابقة واللاحقة؛ لتكوين الوحدات اللغوية الأكبر .**